فريق تفريغ المهندس
علاء حامد

تلخيص تدبر سورة مريم (8)

م. علاء حامد

ALAA HAMED

تلخيص المحاضرة الثامنة
تدبر الآيات من (85-98)

◆ تسلسل موضوعات سورة مريم

• بدأت السورة بذكر نماذج من عباد الله الصالحين وأنبيائه، والثناء عليهم وذكر صفاتهم! وهم: زكريا، ويحيى، ومريم، وعيسى، وإبراهيم، وموسى، وإسماعيل، وإدريس عليهم السلام، وإنعامهم والثناء عليهم.

• ثم انتقلت السورة إلى بيان الطريق المخالف لطريق الأنبياء، فذكرت حال من أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات، ومن انشغل بالدنيا.

• ثم تحدثت عن الذين كذبوا بالآخرة واغتروا بما يتوهمونه من مكانة فيها، ثم ذكرت أعظم انحرافهم وهو ادعاء أن لله ولدًا.

• بيان مصير الفريقين في الدار الآخرة.

◆ ربط السلوك بالعاقبة في القرآن

من أساليب القرآن الانتقال من ذكر الأوامر والنواهي إلى تذكير الإنسان بالآخرة ومصيره فيها من الجنة أو النار؛ ليعلّم الإنسان أن يربط دائمًا بين أعماله في الدنيا ونتيجتها في الآخرة.

فهو يربّي القلب على استحضار أن كل فعل له عاقبة، وأن الطاعة تقود إلى النجاة، والمعصية لها عاقبتها وآثارها؛ حتى يبقى الإنسان واعيًا بمصيره ولا يغفل عن الآخرة.

- الآية: ٨٥ ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا﴾

﴿وَفْدًا﴾ أي جماعات مكرمين، يقدمون على الله سبحانه وتعالى مكرمين.

- والوفد في العرف : جماعة تُستقبل وتُكرم عند وصولها، ومن عادة الوفود عند الملوك أن تُستقبل استقبالًا خاصًا.

- هذه هي العاقبة، وهذه هي النتيجة؛ فهل توجد لذة زائلة تستحق أن يضيّع الإنسان من أجلها هذا الفضل العظيم، ويحرم نفسه من أن يكون مع هؤلاء الكرام؟

- إنها دعوة للثبات على الدين، والعمل بطاعة الله، مع حسن الرجاء والأمل فيه سبحانه؛ رجاء أن يكون الإنسان من أهل هذا الفضل، وأن ينال صفة المتقين.

- الآية: ٨٦ ﴿وَنَسُوقُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرۡدٗا﴾

﴿وَنَسُوقُ﴾ - فالسوق يشعر بالإجبار والانقياد إلى المكان الذي لا يريده الإنسان.

فهي حالة من الإهانة في ذلّ وصَغار.

﴿وِرۡدٗا﴾ - أي: عطاشًا.

- فالوِرد هو الوصول إلى الماء، ويطلق على الجماعة التي تَرِد الماء، لأن العرب كانت تستعمل لفظ الورود بمعنى الوصول إلى الماء وبلوغه.

- أي: نسوقهم إلى جهنم وهم عطاش.

فأهل جهنم يُساقون إلى النار وهم في شدة العطش والذل والهوان.

ومن شدة ما يعانونه أنهم يستغيثون بأهل الجنة قائلين:

﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [الاعراف: ٥٠]

ومن أشد ما يعانون منه شدة العطش وطلب الماء.

- أن الإنسان إذا كان يتألم من حرّ الدنيا وعطشها، مع أن ذلك مؤقت ومحدود، فليتذكر شدة أهوال الآخرة وعذابها الذي لا يمكن مقارنته بما نعرفه في الدنيا. فليجعل هذا التذكّر دافعًا له إلى تقوى الله والعمل بما يرضيه؛ حتى ينجو من العذاب ويفوز برحمة الله.

- فهذا حالهم عند سوقهم إليها، فكيف يكون حالهم بعد دخولها؟

قال تعالى:

﴿ وَإِن يَسۡتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٖ كَٱلۡمُهۡلِ يَشۡوِي ٱلۡوُجُوهَۢۚ بِئۡسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتۡ مُرۡتَفَقٗا ﴾ [الكهف: ٢٩]

- مراحل حشر الناس يوم القيامة وبيان معنى الشفاعة

قد يُشكل على البعض قوله تعالى:

﴿يَوۡمَ نَحۡشُرُ ٱلۡمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحۡمَٰنِ وَفۡدٗا﴾ [مريم: ٨٥]

فقد ثبت أن الناس يوم القيامة يُحشرون كما أخبر النبي ﷺ :

"حفاةً عراةً غُرْلًا".

- فكيف يكون الناس حفاة عراة، ثم يوصف المتقون بأنهم يُحشرون وفدًا، أي في حال من التكريم والتشريف؟

الجواب: أن أحوال الناس يوم القيامة تكون على مراحل؛ فعند خروج الناس من قبورهم يكون الجميع حفاةً عراةً غُرْلًا، ثم يُكسى الناس بعد ذلك، وقد ثبت أن أول من يُكسى إبراهيم عليه السلام.

- ثم يظهر تشريف الله لأهل الإيمان، فيُحشر المتقون إلى الرحمن وفدًا، أي مكرّمين مشرّفين.

- أما المجرمون فحالهم مختلف؛ إذ يُساقون إلى جهنم سوقًا يدل على الذل والهوان، كما قال تعالى: ﴿وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾

- **مقارنة بين حال المتقين والمجرمين**

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾

- كان المجرمون يتفاخرون بما عندهم من مكانة ومتاع في الدنيا، ويظنون أنهم أفضل من أهل الإيمان.

فجاء الرد من الله سبحانه :

﴿فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا﴾

فسيعلمون يوم القيامة حقيقة الأمر، ومن كان في الحقيقة أحسن مقامًا وأقوى حالًا.

ومعنى قوله ﷺ في وصف حال الناس يوم القيامة : **"حفاةً عراةً غُرْلًا"**.

أي : غير مختونين، كما كانوا عند خلقهم أول مرة.

- الآية: ٨٧ ﴿لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَـٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا﴾

- **معنى الشفاعة ومن يملكها**

الشفاعة : هي أن يأذن الله سبحانه وتعالى لأحد من خلقه أن يشفع لمخلوق آخر.

- **من صور الشفاعة بإذن الله:**

1. شفاعة الأنبياء عليهم السلام

فيشفعون بإذن الله، ومن ذلك شفاعة النبي ﷺ يوم القيامة.

2. شفاعة الملائكة والصالحين والمؤمنين

فيأذن الله لهم أن يشفعوا لمن شاء من عباده.

3. شفاعة الأعمال الصالحة

كالقرآن والصيام يشفعان لصاحبهما بإذن الله.

- وكذلك يشفع المؤمنون، فيأذن الله لهم أن يُخرجوا من النار من وجدوا في قلبه مثقال ذرة من إيمان، فيُخرجون خلقًا كثيرًا برحمة الله.

◆ سبب تسمية الشفاعة:

- سُمّيت الشفاعة بهذا الاسم لأنها مأخوذة من الشَّفع، وهو ضد الوتر

فالوتر هو الفرد، والشفع هو ما كان اثنين.

- وسُمّيت الشفاعة شفاعة؛ لأنها تكون بين طرفين: شافع، ومشفوع له.

◆ شفاعة النبي ﷺ

- شفاعة النبي ﷺ يوم القيامة؛ ففي ذلك اليوم يشتد الكرب بالناس ويطول انتظارهم للحساب، فيبحثون عمّن يشفع لهم عند الله ليبدأ القضاء بين الخلق. فيأتون إلى الأنبياء عليهم السلام واحدًا بعد آخر، فيعتذر كل نبي عن القيام بهذا المقام، حتى يصلوا إلى النبي ﷺ، فيتقدم للشفاعة بإذن الله.

- عندئذٍ يسجد النبي ﷺ لربه، ويثني عليه بمحامد يعلّمه الله إياها، ثم يأذن الله له بالشفاعة. وفي هذا إظهار لمكانته العظيمة عند ربه، وبيان لفضله وشرفه على سائر الخلق.

◆ الحِكمة من الشفاعة :

1. إظهار رحمة الله سبحانه وتعالى بالمشفوع فيه؛ حيث يشمله الله برحمته وفضله.

2. إظهار فضل الله وكرمه على عباده؛ فالله يفتح لهم أبواب الرحمة بأسباب لم تكن لهم بمجرد استحقاق.

3. إظهار آثار أسماء الله تعالى وصفاته؛ مثل: الرحيم، والغفار، والكريم سبحانه وتعالى.

4. إظهار كرامة الشافع عند الله تعالى؛ فالشفاعة رفعة للشافع ومكافأة له على مكانته وطاعته.

5. إظهار عدل الله سبحانه وتعالى؛ فوجود الحساب والشفاعة يكون لحِكَم، منها أن تظهر للناس أسباب دخول أهل الجنة الجنة وأسباب دخول أهل النار النار، وأن الله لم يظلم أحدًا.

6. بيان أن الدنيا دار ابتلاء وليست عبثًا؛ فقد جعل الله فيها الاختبار حتى يظهر أثر أعمال العباد ونتائجها.

7. إظهار خطأ من أنكر الشفاعة؛ لأن إنكارها يكون بسبب الجهل بحِكَمها، مع أن أحاديث الشفاعة ثابتة وصحيحة في كتب السنة.

◆ عدل الله في المنع وكرمه في العطاء

- قاعدة عظيمة في التعامل مع الله سبحانه وتعالى، وهي أن الله لا يظلم أحدًا، ولا يعذب أحدًا بغير استحقاق.

1- عدل الله في المنع والعقوبة:

- الله سبحانه وتعالى لا ينقص الإنسان من أجر عمله.
- لا يعاقب أحدًا بأكثر مما يستحق.
- لا يظلم أحدًا، ولا يحرم أحدًا من ثواب عمله.

2- فضل الله وكرمه في العطاء:

- أما العطاء من الله سبحانه وتعالى فليس قائمًا على الاستحقاق فقط، بل هو فضل وكرم ومنّة منه سبحانه.
- فلو عاملنا الله بالعدل المجرد في العطاء لما استحق أحد دخول الجنة؛ لأن أعمال العباد مهما عظمت لا تساوي نعم الله عليهم وفضله.

3- دخول الجنة برحمة الله:

- الحمد لله أن الله سبحانه وتعالى يعامل عباده في العطاء بالكرم والفضل، وفي المنع والعقوبة بالعدل.
- ولا يكون عمل العبد سببًا كافيًا لدخول الجنة، لكن رحمة الله وفضله تدركه، فيدخله الله الجنة برحمته وكرمه.

4- من مظاهر رحمة الله:

- ما جاء في الحديث أن الله سبحانه وتعالى يخرج من النار أقوامًا لم يعملوا خيرًا قط سوى إيمانهم، فيقال لهم: هؤلاء عتقاء الرحمن من النار؛ أي أن الله أعتقهم برحمته وفضله وكرمه.

◆ شروط الشفاعة في القرآن

قال سبحانه وتعالى: ﴿ لَّا يَمۡلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحۡمَٰنِ عَهۡدٗا﴾ [مريم: ٨٧]

فالشفاعة ليست مفتوحة لكل أحد، بل لها شروط:

الشرط الأول : أن يأذن الله للشافع أن يشفع:

قال الله تعالى:

﴿يَوۡمَئِذٖ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنۡ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُۥ قَوۡلٗا﴾ [طه: ١٠٩]

فلا شفاعة إلا لمن أذن الله له.

الشرط الثاني : أن يرضى الله عن المشفوع فيه:

قال الله تعالى في سورة الأنبياء:

﴿وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ وَهُم مِّنۡ خَشۡيَتِهِۦ مُشۡفِقُونَ﴾[الأنبياء: ٢٨]

- أي أن الله سبحانه وتعالى يكون راضيًا عن المشفوع فيه، ويريد له الرحمة.

- **حرمان الكفار من الشفاعة**

الكفار الذين يموتون على الكفر محرومون من الشفاعة؛ فلا يجدون من يشفع لهم شفاعةً تُنجيهم من النار أو تُخرجهم منها، كما أنهم ليسوا ممن تنفعهم الشفاعة.

قال الله تعالى: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ﴾[الشعراء: ١٠٠]

- أما المؤمنون العصاة فقد تنالهم الشفاعة بإذن الله تعالى ورحمته، بخلاف من لقي الله على الكفر.

- **استثناء أبي طالب في التخفيف من العذاب**

- ورد في السنة النبوية استثناءٌ واحد يتعلق بالشفاعة للكافر، وهو شفاعة النبي ﷺ لعمه أبي طالب؛ شفاعةٌ في تخفيف العذاب عنه فقط، لا في إخراجه من النار، لأنه مات على الكفر.

- فقد أخبر النبي ﷺ أن أبا طالب لولا شفاعته لكان في الدرك الأسفل من النار، إلا أن الله خفف عنه العذاب، فصار في ضحضاح من نار يبلغ كعبيه، ومع ذلك يغلي منه دماغه من شدة ما يجد من العذاب.

- ويُذكر من أسباب هذا التخفيف ما كان من نصرة أبي طالب للنبي ﷺ وحمايته له. مع أنه لم يؤمن به ولم يمت على الإسلام، فلم تنفعه في النجاة من النار، لكنها كانت سببًا في تخفيف عذابه.

- يدل هذا على عِظَم خطر الكفر والشرك؛ فمع مكانة النبي ﷺ عند ربه، لم يُؤذن له أن يُخرج عمه من النار.

قال تعالى:

﴿مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ﴾[المائدة: ٧٢]

فالكافر لا يكون شافعًا ولا مشفوعًا فيه.

- **بطلان اعتماد المشركين على معبوداتهم**

- **ظن المشركون أن معبوداتهم ستشفع لهم عند الله يوم القيامة؛ فمنهم من عبد الملائكة، ومنهم من عبد عيسى عليه السلام، ظنًّا منهم أن لهم مكانة عند الله تنفعهم.**
- **لكن الله أبطل هذا الاعتقاد؛ فالمعبودات الباطلة تتبرأ من عابديها يوم القيامة، وأما من عُبد من الأنبياء والملائكة والصالحين بغير رضاه فإنه يتبرأ ممن عبده، ولا تنفع تلك العبادة أصحابها.**

﴿إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحۡمَٰنِ عَهۡدٗا﴾

﴿عَهۡدًا﴾ : التوحيد والإيمان، ومنه شهادة أن لا إله إلا الله.

- فلا يملك الشفاعة ولا ينتفع بها إلا من كان من أهل التوحيد.

- ومن كان موحِّدًا بالله لكنه قصّر أو استحق العقوبة، فقد تناله الشفاعة إذا رضي الله عنه وأذن بها.

فائدة لغوية : الاستثناء المتصل والاستثناء المنقطع

في قوله تعالى : ﴿لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾ تظهر فائدة لغوية تتعلق بالاستثناء :

- **ما يأتي بعد "إلّا" يسمى المستثنى.**
- **وما قبلها يسمى المستثنى منه.**

أولًا : الاستثناء المتصل

يكون عندما يكون المستثنى جزءًا من المستثنى منه.

مثاله: "أكرمت جميع الطلاب إلا محمدًا".

فمحمد من الطلاب، ولذلك يسمى الاستثناء متصلًا.

ثانيًا: الاستثناء المنقطع

يكون عندما لا يكون المستثنى من جنس المستثنى منه، أي ليس جزءًا منه.

- **القول الأول: أن الاستثناء منقطع**

إذا كان المقصود بقوله تعالى: ﴿لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ﴾ هم الكفار الذين سبق ذكرهم، فإن قوله: ﴿إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾ لا يكون من جنسهم؛ لأن أهل التوحيد ليسوا من الكفار، وعلى هذا يكون الاستثناء منقطعًا، وتكون "إلّا" بمعنى : لكن.

- فيكون المعنى : لا يملك الكفار الشفاعة، لكن من اتخذ عند الرحمن عهدًا (أي كان من أهل التوحيد) فقد تنفعه الشفاعة بإذن الله تعالى.

- **القول الآخر : أن الاستثناء متصل**

وذهب بعض العلماء إلى أن الاستثناء هنا متصل، بناءً على أن قوله تعالى: ﴿لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ﴾ لا يعود إلى الكفار وحدهم، بل يشمل جميع من ذكرهم السياق السابق: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَـٰنِ وَفْدًا﴾

وقوله تعالى: ﴿وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾

- فعلى هذا يكون الكلام عن جميع المذكورين في السياق، ثم استُثني منهم من اتخذ عند الرحمن عهدًا.

- ولذلك عدَّ أصحاب هذا القول الاستثناء متصلًا؛ لأن المستثنى يكون داخلًا في عموم ما قبله.

- وهذا من المواضع التي يذكر فيها المفسرون أكثر من وجه لغوي وتفسيري، بحسب فهم السياق وتحديد مرجع الضمير في الآية.

- **اختلف العلماء في مرجع الضمير في قوله تعالى: ﴿لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ﴾**

- فإن كان الضمير يعود على المجرمين فقط، كان الاستثناء في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾ استثناءً منقطعًا؛ لأن أهل التوحيد ليسوا من جنس المجرمين.

- أما إذا كان الضمير يعود على المتقين والمجرمين جميعًا، كان الاستثناء متصلًا؛ لأن من اتخذ عند الرحمن عهدًا داخل في عموم المتقين المذكورين في السياق.

- الآية: ٨٨ ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَلَدًا﴾

- وقد جاء في الحديث القدسي أن الله تعالى قال: «سبَّني ابن آدم، وما كان ينبغي له ذلك». ثم بيَّن سبحانه أن من أعظم صور هذا السب أن يُنسب إليه الولد، فقال: «أما سبُّه إياي فقوله: اتخذ الله ولدًا، وأنا الواحد الأحد الفرد الصمد».

- ولهذا كانت هذه المقالة من أبشع المقالات وأعظمها جرمًا؛ لما تتضمنه من الطعن في كمال الله تعالى ووحدانيته، حتى إن الله سبحانه وصف عِظَم أثرها بأن السماوات تكاد تتفطر منها، والأرض تنشق، والجبال تخر هدمًا.

- الآية: ٨٩ ﴿لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا﴾

- أي : لقد جئتم أمرًا فظيعًا عظيمًا منكرًا.

- الآية: ٩٠ ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا﴾

- بيان مدى شناعة قولهم وعظيم خطره.

- أي : تكاد السماوات تتشقق، والأرض تنصدع، والجبال تتحطم وتهدم من عِظَم هذه الكلمة.

بسبب ادعائهم هم في الآية - الآية: ٩١ ﴿أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا﴾

- قد يقول قائل: لقد وصف الله السماء بقوله تعالى:

﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾ [ق: ٦]

- أي : ليس في السماء شقوق ولا تصدعات، لكنها تكاد تتشقق من هول هذه المقالة وشناعتها.

- وإن قيل: أليس الله تعالى قال:

﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٥]

- فالجواب أن هذا التشقق يقع يوم القيامة، أما هنا فالمعنى أن السماوات تكاد تتفطر من شناعة نسبة الولد إلى الله لو أذن الله لها بذلك.

- الآية: ٩٢ ﴿وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾

- أي إن هذا الأمر غير وارد أصلًا، ولا يمكن تصوره، ولا يحتمله العقل السليم.

استحالة اتخاذ الله ولدًا

- أي لا يليق به سبحانه، ولا يمكن، ولا يُتصور، ولا يصح بحال من الأحوال أن يكون له ولد.
- فالمسألة هي نفي لأصل الفكرة من أساسها؛ لأنها ممتنعة في حق الله تعالى، فالله سبحانه منزَّه عن الولد، إذ لا يليق به ذلك بحال، وهو أمر ممتنع في حقه؛ لأنه الكامل الغني عن كل ما سواه.

◆ **حاجة الإنسان إلى الزواج والولد دليل على افتقاره**

- الإنسان يحتاج إلى الزواج، ثم يحتاج بعد ذلك إلى الولد، ولذلك ينظر كثير من الناس إلى الزواج والإنجاب على أنهما من تمام الحياة. ولو سُئل الإنسان: لماذا يريد الزوجة أو الولد؟ لذكر حاجته إلى الأنس أو المساعدة أو بقاء الذكر والنسل وغيرها من الاحتياج النفسي.

- فكل ذلك يدل على الافتقار والحاجة، والحاجة من صفات المخلوقات؛ لأنها تدل على الافتقار. أما الله سبحانه فهو الكامل الغني عن كل ما سواه، فلا يحتاج إلى صاحبة ولا ولد. ولهذا كانت نسبة الولد إلى الله تعالى من أعظم الباطل؛ لأنها تتضمن نسبة النقص والحاجة إليه سبحانه، وهو منزه عن ذلك كله.

◆ **قد يقول قائل: أليس الله على كل شيء قديرًا، فهل يقدر أن يكون له ولد؟**

- **والجواب: أن الله سبحانه كامل في صفاته، ومن صفاته الذاتية كالحياة والوحدانية أنها ثابتة له سبحانه، ولا تتعلق بالمشيئة من جهة أصل ثبوتها؛ لأن زوالها أو تغيرها نقص.**

- **أما ما يتعلق بالمشيئة، كالمغفرة والعذاب، فهو من الصفات الفعلية.**

- **لذلك فإن اتخاذ الولد أمر ممتنع في حق الله؛ لأنه يستلزم الحاجة والنقص، والله سبحانه منزه عن كل نقص.**

- خطأ بعض الأسئلة المتوهمة المتعلقة بالقدرة الإلهية

- بعض الأسئلة تكون خاطئة في أصلها، مثل: هل يقدر الله أن يموت أو يعجز أو يتخذ ولدًا؟

- فهذه أمور تناقض كمال الله؛ فالموت والعجز والحاجة نقائص، والله سبحانه منزه عنها.

- ولا يقال إنه لا يفعلها لعجزه، بل لأنها ممتنعة في حقه لمنافاتها لكماله المطلق.

- الرد على دعوى موت الإله

- يعتقد النصارى أن المسيح عليه السلام مات مع اعتقادهم بألوهيته، وهذا يستلزم نسبة الموت إلى الإله، والموت صفة نقص، والله سبحانه منزه عن كل نقص.

- **وما يسمونه "عيد القيامة" يقصدون به قيام المسيح من الموت، وليس القيامة التي تكون يوم القيامة في الإسلام.**

- أما المسلم فيؤمن بأن الله تعالى هو الحي الذي لا يموت، كما قال سبحانه:

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا﴾ [الفرقان : ٥٨].

- ولهذا فالسؤال: "هل يستطيع الله أن يموت؟" سؤال غير صحيح؛ لأن الحياة صفة ذاتية كاملة لله تعالى، ومن كمالها أنها لا تقبل النقيض، فالله سبحانه حي لا يموت.

استحالة اتخاذ الله ولدًا عقلًا وشرعًا

• قد يقول قائل : هل يمكن أن يجعل الله لنفسه ولدًا من غير حاجة؟

والجواب : لا يمكن ذلك؛ لأن الله سبحانه متصف بالوحدانية والكمال، ومن مقتضى ذلك أنه لا شبيه له ولا مثيل.

• كما أن هذا ممتنع عقلًا؛ لأن الولد يكون من جنس والده، والله سبحانه خالق غير مخلوق.

- فإن قيل : إن لله ولدًا، فلا يخلو من حالين:

- الأول: أن يكون الولد خالقًا.

- وهذا لا يصح؛ لأن الخالق لا يكون ولدًا، بل لا يكون ولدًا أصلًا؛ لأن الخالق لا يكون مخلوقًا ولا يحتاج إلى من يخلقه، فلا يسمى ولدًا.

- الثاني: أن يكون الولد مخلوقًا.

- وهذا لا يصح أيضًا؛ لأن المخلوق لا يكون ولدًا للخالق، فالخالق ليس من جنس المخلوقات.

- فثبت أن دعوى الولد لله تعالى باطلة عقلًا وشرعًا.

قال سبحانه وتعالى: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ [الإخلاص: ٣]

- فنفى سبحانه عن نفسه الولد والولادة؛ لأنه الكامل الغني عن كل ما سواه.

• فهو لا يلد؛ لأن الولد في حق المخلوق يستلزم الحاجة والمشابهة، والله منزه عن ذلك.

• وهو لم يولد؛ لأنه سبحانه الأول الذي ليس قبله شيء، والخالق الذي ليس بمخلوق.

- ولهذا كانت سورة الإخلاص من أعظم ما يرد على دعاوى المشركين والنصارى في نسبة الولد إلى الله تعالى.

استحالة نسبة الولد إلى الله تعالى

- إن القول بأن لله ولدًا يؤدي إلى تناقضات عقلية؛ لأن الولد لا يكون إلا من جنس والده.

- فتثبت استحالة هذه الدعوى عقلًا؛ لأن دعوى الولد تستلزم مشابهة بين الوالد والولد، والله سبحانه منزه عن مشابهة المخلوقات.

زعم النصارى في سبب اتخاذ الولد

- من أعجب ما في اعتقاد النصارى أنهم لا يكتفون بالقول إن لله ولدًا، بل يزعمون أن الله جعل له ولدًا ليكون هذا الولد هو المخلِّص للبشرية.

- فإذا سُئلوا: ممَّ يخلِّصهم؟ قالوا: من الخطيئة الأولى، وهي خطيئة آدم عليه السلام عندما أكل من الشجرة.

- ثم يعتقدون أن الله أنزل ابنه إلى الدنيا ـ تعالى الله عما يقولون ـ ليُصلب، ويُضرب، ويُهان، ويُبصق عليه، ويُشتم؛ حتى يكون ذلك سببًا في تخليص البشرية من هذه الخطيئة.

- وبناءً على هذا الاعتقاد يكون الإنسان قد نجا من خطيئة لم يرتكبها، ويصبح الخلاص عندهم متوقفًا على الإيمان بهذا المخلِّص.

الرد على عقيدة الخطيئة الأولى

- تتضمن هذه العقيدة إشكالات عقلية عديدة، فنقول: لو افترضنا وجود خطيئة آدم عليه السلام، فإما أن الله تعالى غفرها، أو لم يغفرها.

- أما نحن المسلمين فنؤمن بأن الله غفر لآدم عليه السلام؛ فقد تاب آدم إلى ربه وقال:

﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣]

- فأخبر الله تعالى عن قبول توبته فقال:

﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٣٧]

- وبذلك انتهى أمر خطيئة آدم عليه السلام، فلا يبقى معنى للقول بأن البشرية تحتاج إلى مخلِّص يخلِّصها من خطيئته.

بطلان تحميل البشر ذنب آدم عليه السلام

لو افترضنا جدلًا أن الله تعالى لم يتب على آدم عليه السلام، فنسأل: ما علاقة البشر بذنب آدم؟

ففي الإسلام قاعدة عظيمة

قال الله تعالى: ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [النجم: ٣٨]

- فالإنسان لا يحمل ذنب غيره، إلا إذا رضي بهذا الذنب، أو أقرَّه، أو أعان عليه، أو تمنى فعله.

- **فهل نحن راضون بخطيئة آدم عليه السلام؟**
- **وهل كنا نتمنى أن نفعل مثل فعله؟**
- **وهل نفتخر بهذه الخطيئة؟**

الجواب: لا.

- وعليه، حتى على هذا الافتراض، لا يصح أن يحمل البشر ذنب آدم عليه السلام؛ لأن ذلك يستلزم نسبة الظلم إلى الله تعالى، إذ يُحاسب الإنسان على ذنب لم يرتكبه، ولم يرضَ به، ولم يكن له اختيار فيه.

إشكالات أخرى في عقيدة الفداء

- **ولو وافقنا جدلًا على أن آدم عليه السلام لم تُغفر له خطيئته، وأن البشر يحملون ذنبه، فتبقى إشكالات أخرى:**

إذا كان الله سبحانه يريد رحمة البشر، فلماذا لا يتوب على آدم وتنتهي القضية؟

وإذا لم يكن ذلك، فلماذا لا يرسل رسولًا يخبر الناس بأن الله قد تاب عليهم؟

وهل يعجز الله سبحانه عن مغفرة الذنوب دون أن يُصلب أحد، أو يُهان، أو يُعذب؟

إن القول بأن رحمة البشر لا تتحقق إلا بتعذيب الابن المزعوم يتضمن إشكالات عظيمة؛ لأن الله سبحانه قادر على المغفرة والرحمة دون أن يحتاج ذلك إلى هذا الأمر.

إشكال صلب المسيح عليه السلام في عقيدة النصارى

ثم يقال: إذا كان اليهود ـ بحسب اعتقادهم ـ قد تمكنوا من ضرب المسيح عليه السلام وتعذيبه وصلبه، فهل يعني ذلك أن البشر غلبوا الله تعالى؟

- إن هذا القول يستلزم أمورًا باطلة؛ لأن الله سبحانه هو القاهر فوق عباده، ولا يقدر أحد عليه.

- أما عقيدة المسلمين فهي أن المسيح عليه السلام لم يُقتل ولم يُصلب، كما قال الله تعالى:

﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا﴾[النساء: ١٥٧]

إشكال عقيدة الخلاص بالمسيح

- بحسب عقيدة النصارى، لا ينجو الإنسان إلا بالإيمان بالمخلِّص، وهو المسيح عليه السلام في اعتقادهم. وهنا يرد إشكال: ماذا عن الذين عاشوا قبل بعثة المسيح عليه السلام؟

- فهؤلاء لم يعرفوا المخلِّص، ولم يروه، ولم يؤمنوا به؛ فكيف يُحاسبون على عدم الإيمان بمن لم يُبعث إليهم بعد؟

- وإن قيل: إنهم نالوا الخلاص بغير المخلِّص، فما الحاجة إذن إلى وجود المخلِّص أصلًا.

الآيات: ﴿وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحۡمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا (٩٢) إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدًا (٩٣) لَّقَدۡ أَحۡصَىٰهُمۡ وَعَدَّهُمۡ عَدًّا (٩٤)﴾

- كل من في السماوات والأرض سيأتي يوم القيامة عبدًا خاضعًا لله تعالى، فلا يليق أن يُجعل عبد من عباده ولدًا له سبحانه!

- والله تعالى غني عن كل ما سواه، وله ملك السماوات والأرض، فلا يحتاج إلى شريك ولا ولد.

- فالله يُحمد على أنه لم يتخذ ولدًا؛ لأن اتخاذ الولد لا يليق بكماله سبحانه، بل ينافي غناه ووحدانيته.

قال تعالى:

﴿وَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدًا وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلۡمُلۡكِ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرۡهُ تَكۡبِيرًا﴾

﴿وَكُلُّهُمۡ ءَاتِيهِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَرۡدًا﴾

الوقوف بين يدي الله يوم القيامة فردًا فكل إنسان سيأتي يوم القيامة وحده.

قال النبي ﷺ:

«ما منكم من أحد إلا سيكلمه الله، ليس بينه وبينه ترجمان، فينظر أيمن منه فلا يرى إلا ما قدم، وينظر أشأم منه فلا يرى إلا ما قدم، وينظر تلقاء وجهه فلا يرى إلا النار، فاتقوا النار ولو بشق تمرة».

- إذا علم الإنسان أنه سيقف أمام الله وحده، فلا ينبغي أن يستوحش من كونه وحيدًا في طريق الالتزام.

- فقد يكون الإنسان هو الوحيد الملتزم في أسرته، أو في مكان دراسته، أو في مجتمعه، أو الوحيدة التي ترتدي الحجاب الشرعي، أو الوحيد الذي يثبت على الطاعة.

- فليتذكر : سأذهب إلى الله وحدي، وسأحاسب وحدي، وسأقف بين يديه وحدي، ولن ينفعني أحد يوم القيامة.

- فلا تترك عبادتك، ولا تتنازل عن طاعتك، ولاتجعل رضا الناس مقدمًا على رضا الله.

- قال النبي ﷺ :

«من أرضى الله بسخط الناس رضي الله عنه وأرضى عنه الناس، ومن أسخط الله برضا الناس سخط الله عليه وأسخط عليه الناس».

- الآية: ٩٦ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا﴾

-أي : يجعل لهم وُدًّا وقبولًا في قلوب عباده، وخاصة أهل الإيمان.

- فبعد أن بيّن الله أن الإنسان قد يسير في طريق الحق وحده، بيّن سبحانه أن من ثبت على الإيمان والعمل الصالح جعل الله له وُدًّا ومحبة في قلوب عباده، وهذه منحة من الله، كما قال تعالى عن موسى عليه السلام:

﴿وَأَلۡقَيۡتُ عَلَيۡكَ مَحَبَّةٗ مِّنِّي﴾ [طه: ٣٩]

- فالمحبة الحقيقية هبة من الله يضعها في القلوب. وقد قيل إن موسى عليه السلام ما رآه أحد إلا أحبه، مع أنه كان معروفًا بالقوة والشدة، لكن الله جعل له قبولًا ومحبة في قلوب أهل الخير.

- وقد فسّر النبي ﷺ هذا المعنى في الحديث فقال:

«إذا أحبَّ الله عبدًا نادى جبريل: إن الله يحب فلانًا فأحبَّه، فيحبُّه جبريل، ثم ينادي جبريل في أهل السماء: إن الله يحب فلانًا فأحبوه، فيحبُّه أهل السماء، ثم يوضع له القبول في الأرض».

ثم قرأ النبي ﷺ قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا﴾

- فإذا كنت من أهل الإيمان والعمل الصالح، فثق أن الله سيجعل لك محبة وقبولًا بين أهل الحق.

أجمل أنواع المحبة: المحبة لله

- أصفى المحبة هي التي تكون لله؛ لأنها لا تقوم على مصلحة أو منفعة دنيوية، وهي من أعظم النعم، فيحبك الناس لما يرونه فيك من خير.

- فالمحبة المرتبطة بالمصالح تزول بزوالها، أما من أحبك لله فإن محبته تبقى؛ لأنها قائمة على الخير والطاعة لا على ما يقدمه الإنسان من نفع.

• ومن أسباب نيلها الإيمان والعمل الصالح.

قاعدة قرآنية : كل حكم معلق على وصف يزيد بزيادته وينقص بنقصانه.

- ومعنى ذلك أن الله سبحانه ربط بعض الوعود بصفات معينة، فكلما زادت هذه الصفة زاد نصيب الإنسان من الوعد، وكلما نقصت نقص نصيبه.

- فكلما زاد إيمان الإنسان وعمله الصالح، زاد ما يجده من القبول والمحبة في قلوب الخلق، وكلما نقص إيمانه وعمله نقص ذلك.

• وتظهر هذه القاعدة في كثير من وعود القرآن :

قال تعالى:

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ﴾[الأنعام: ٨٢]

- فالأمن هنا وعد للمؤمنين، لكنه يزيد بزيادة الإيمان، وينقص بنقصانه.

- الآية: ٩٧ ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرۡنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلۡمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوۡمٗا لُّدّٗا﴾

﴿فَإِنَّمَا يَسَّرۡنَٰهُ بِلِسَانِكَ﴾

- أي القرآن الكريم.

﴿لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾

- لتبشر بهذا القرآن المتقين بالفوز والنعيم.

﴿قَوۡمٗا لُّدّٗا﴾

- شديدي الخصومة.

- أي : لتنذر به قومًا شديدي الخصومة والعناد.

- الآية: ٩٨ ﴿وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّن قَرۡنٍ هَلۡ تُحِسُّ مِنۡهُم مِّنۡ أَحَدٍ أَوۡ تَسۡمَعُ لَهُمۡ رِكۡزَۢا﴾

﴿مِّن قَرۡنٍ﴾

أي: من أمة.

- يضرب الله سبحانه وتعالى مثلاً للمكذبين والمعاندين الذين سبقوهم من الأمم السابقة التي أهلكها الله بسبب كفرها وتكذيبها وعنادها.

- فأين قارون؟ وأين عاد؟ وأين ثمود؟ وأين فرعون؟ وأين الجبابرة والنماردة؟

﴿هَلۡ تُحِسُّ مِنۡهُم مِّنۡ أَحَدٍ أَوۡ تَسۡمَعُ لَهُمۡ رِكۡزَۢا﴾

- والرِّكز هو الصوت الخفي، وقيل: سُمّي الرِّكاز بذلك لاختفائه ودفنه في الأرض.

- أي: هل تجد لهم أثرًا أو تسمع لهم صوتًا خفيًّا؟

- تحدثت سورة مريم عن رحمة الله وأهلها من الأنبياء والصالحين، وذكرت صفاتهم التي تنال بها الرحمة، مثل: الدعاء، والصلاة، والتقوى، والتوبة.

- ثم بيّنت أسباب الحرمان من الرحمة، ومنها: إضاعة الصلاة، واتباع الشهوات، والكفر، وإنكار البعث، والإلحاد.

- وختمت ببيان عاقبة من أعرض عن طريق الله.

- **منهج مقترح لدراسة التفسير من البداية**

أولًا : فهم مفردات القرآن

- **غريب القرآن للشيخ الخضيري**

ابدأ بفهم معاني الكلمات ؛ لأنها أساس فهم الآيات.

ثانيًا : التفسير المبتدئ

- **التفسير الميسر.**
- **المختصر في التفسير.**

اقرأ تفسيرًا مختصرًا لفهم المعنى العام للآيات وتدبرها.

ثالثًا: التفسير المتوسط

- **تفسير السعدي.**
- **أيسر التفاسير لأبي بكر الجزائري.**

يمكن الاكتفاء بأحدهما مع القراءة المتأنية لاكتساب أساس قوي.

رابعًا: مرحلة التميز وأصول التفسير

- **المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير.**
- **سلسلة المراحل الثمان لطالب فهم القرآن للدكتور عصام العويد.**
- **فصول في أصول التفسير للدكتور مساعد الطيار.**
- **التحرير في أصول التفسير للدكتور مساعد الطيار.**

لا تدخل في كتب التفسير التي تذكر الخلافات إلا بعد تعلم أصول التفسير؛ لفهم أقوال العلماء والترجيح بينها.

خامسًا: التعمق والتطبيق

- **متابعة شرح المصباح المنير للشيخ خالد السبت.**

تتعلم من خلاله : أسباب اختلاف المفسرين، وأنواع الخلاف، وقواعد الترجيح.

سادسًا : تقوية أدوات اللغة

الاهتمام بـ : النحو،البلاغة، علوم اللغة.

- كلما قويت اللغة ازداد عمق فهمك للقرآن.

سابعًا: المستوى المتقدم

- **التحرير والتنوير للطاهر ابن عاشور.**
- **روح المعاني للألوسي.**

هذه الكتب تحتاج إلى رسوخ في أصول التفسير واللغة والبلاغة.